

الأبناء وأحلام الأهل الضائعة



مننا لا ينعدم على أحلام أراد تحقيقها خلال حياته، لكنه لم يفعل، أو على فرص صاعت منه من دون أن يغتنمها؟ لذلك، يرى عديد من الأهل في أطفالهم فرصة لتحقيق أحلامهم الضائعة. ويؤكد علم النفس وجود مثل هذه الرغبة لدى شريحة واسعة منهم. وكانت أوّل مرة تم فيها تسلیط الضوء على هذه الطاھرة من خلال نظریات وضعها عالم النفس النمساوي الشهير سیجموند فروید، "أبو التحلیل النفسي الحديث" والطبيب النفسي السويسري کارل یونج، وهو أبرز مؤسسي علم النفس التحلیلی، وذلك عندما تناولا العلاقة النفیسیة بین الأهل وأطفالهم.

ولكن أفکارهما بقيت مجرد نظریات من دون أن يقوم أحد باختبارها على أرض الواقع، إلى أن قرر إیدي برومليمان البروفیسور في علم النفس بإحدى جامعات أمستردام، أن يستكشف أساس هذه النظریات ومدى صحّتها.

أجرى إیدي برومليمان دراسة شملت 73 شخصاً، ممن لديهم طفل واحد على الأقل، ما بين 8 و15 سنة، وكان 89 في المائة من هؤلاء الأشخاص من الأُمّهات. وأوّل ما تم سؤالهم عنه المدى الذي يرون فيه أنّ أطفالهم جزء منهم. ومن ثم طلب منهم التعبير عن أحلام لم يستطيعوا تحقيقها خلال حياتهم.

وبعد ذلك طرحت عليهم أسئلة تستكشف مدى رغبتهما في أن يحقق أطفالهم أحلامهم الشائعة.

خلصت الدراسة إلى أنّه كلما ازداد اعتقاد الأهل بأنّ أطفالهم جزء منهم، اشتدت رغبتهما في تحقيق أحلامهم من خلال أطفالهم.

لكن علم النفس يؤكد أنّ واحداً من أكبر الأخطاء التي يرتكبها الأهل يتمثل في محاولة دفع أطفالهم لتحقيق أحلامهم الضائعة، فالاطفال يتميزون بالبراءة التامة وبتأثیرهم بكلّ مَنْ وما يدور حولهم، ولذلك يعود الأمر إلى الأهل لكي يكونوا مثلاً جيداً لهم. ولا شكّ أنّ في ذلك مسؤولية كبيرة، ولكنه في الوقت ذاته، يعطي الأهل قدرة كبيرة على التحكم بأطفالهم، وبالتالي يميل عديد منهم إلى إسقاط ماضيهما وأمالهم وأحلامهم على أطفالهم. وقد يقومون بذلك لاعتقادهم بأنّ في ذلك مصلحة أطفالهم وأنّ دفعهم نحو ممارسة نشاط رياضي معين، أو العزف على آلة موسيقية محددة، أو اختيار مهنة معينة

دون غيرها، يؤدي إلى إعطائهم الفرصة التي حرموا هم منها، ولكن غالباً ما يكون ذلك تبريراً ملائماً يساعد على تجذّب ما يحصل فعلاً.

إحساس الأطفال العميق:

يقول "براد بوشمان"، أحد مؤلفي كتاب "طفل يعيش أحلامي المكسورة"، إن "الأطفال في صغرهم يقومون بأي شيء لكي ينالوا رضا أهلهـم، كما أنـهم يمتلكون درجة إحساس عالية تمكـنـهم من قراءة الأهداف التي نرسمها لهم، والأمور التي نفضلها لهم، وبالتالي يقومون بتعديل تصرـفاـتهم وفقاً لذلك.

وحتى لو عبدـوا عن تأكـيدـهم أنـهم يحبـون هذا النوع من الرياضة أو المشاركة في هذه المسابقة أو تلك أو الصعود إلى المسرح للغناء، فالحقيقة أنـ ما لديـهم هو رغبة كبيرة في إسعـادـ أهلهـم. وقد يقنـعونـ أنفسـهم برغـبـتهم في القيام بما اختـارـه لهم أهلهـم فقط من أجل إرضـائهم.

العائق أمام تحقيق الاستقلالية:

ولكن لا بدـ من أنـ يؤثـرـ إجـبارـ الأطفالـ، ولو بـطـريـقـ غيرـ مـباـشرـةـ، علىـ سـلـوكـ طـرـيقـ معـيـنـ، علىـ عـملـيـةـ نـضـوجـهـمـ الطـبـيعـيـةـ. وقدـ يـؤـدـيـ ذـلـكـ إـلـىـ وـضـعـ عـدـيدـ مـنـ العـقـبـاتـ أـمـاـمـ تـطـوـرـ سـخـصـيـتـهـمـ الـخـاصـةـ، وـبـدـلـ أـنـ يـكـبـرـواـ وـيـتـعـلـمـواـ اـعـتـمـادـهـمـ أـكـبـرـ عـلـىـ أـهـلـهـمـ، وـسـيـظـلـوـنـ غـيرـ قـادـرـينـ عـلـىـ أـنـ يـقـرـرـواـ بـأـنـفـسـهـمـ مـاـ هـوـ أـفـضلـ لـهـمـ.

وعندما يدخلـونـ فيـ مرـحلـةـ المـراهـقـةـ لـابـدـ أنـ تـصـبـحـ الأمـورـ مـحـيـرـةـ أـكـثـرـ بـالـنـسـبـةـ لـهـمـ، مماـ قدـ يـدـفعـهـمـ لـلتـمـرـدـ وـالـتـصـرـفـ وـفـقـاـ لـمـشـاعـرـهـمـ غـيرـ الـوـاعـيـةـ مـنـ الرـفـضـ، وـتـبـدـلـ رـغـبـتـهـمـ فيـ إـرـضـاءـ أـهـلـهـمـ لـتـحلـ مـحلـهـاـ الرـغـبـةـ فيـ إـحـبـاطـ الـأـهـلـ وـتـخـيـبـ آـمـالـهـمـ. وـحتـىـ عـنـدـمـاـ تـغـيـرـ مـشـاعـرـهـمـ فيـ ضـوءـ التـأـثـرـ بـالـعـلـاقـةـ مـعـ أـهـلـهـمـ، وـبـدـلـ أـنـ تـكـوـنـ لـدـيـهـمـ رـؤـيـتـهـمـ الـخـاصـةـ لـلـأـمـورـ سـيـقـوـنـ فيـ فـتـرـةـ مـرـاهـقـةـ دـائـمـةـ.

يقول بول توف في كتابه الشهير، الذي أصبح من الكتب الأكثر رواجاً في الولايات المتحدة، والذي يحمل عنوان "كيف ينجح الأطفال؟": إن "إعطاء الأطفال الفرصة وابتعد الأهل عنهم ليتعلـمـواـ منـ أـخـطاـئـهـمـ هوـ منـ أـهـمـ عـوـاـمـلـ بـنـاءـ الشـخـصـيـةـ، الـتـيـ تـسـاعـدـهـمـ عـلـىـ النـجـاحـ فـيـ الـمـسـتـقـبـلـ. ولاـ شـكـ فـيـ أـنـ فـرـضـ أـحـلـامـ الـأـهـلـ عـلـىـ أـطـفالـهـمـ يـحـرـمـهـمـ مـنـ تصـوـرـ حـيـاـتـهـمـ بـالـشـكـلـ الـذـيـ يـرـيدـونـهـ، وـمـنـ الـاستـقـلـالـيـةـ الـتـيـ تمـكـنـهـمـ مـنـ اـرـتـكـابـ أـخـطاـئـهـمـ الـخـاصـةـ وـالـتـعـلـمـ مـنـهـاـ".

حياة الأهل لا تتوقف بمجرد إنجاب الأطفال:

أماـ بـالـنـسـبـةـ لـلـأـهـلـ فـهـنـاكـ أـمـرـ يـتـعـلـقـ بـأـسـاسـ فـكـرـةـ عـيـشـ أـحـلـامـهـمـ مـنـ خـلـالـ أـطـفالـهـمـ، وـهـوـ الـافتـراضـ الـذـيـ قـلـ "ماـ تـنـمـ الإـشـارـةـ إـلـيـهـ أـوـ الـاعـتـرـافـ بـهـ فـعـلـاـ". إـذـاـ مـاـ أـرـادـ الـأـهـلـ أـنـ يـعـيـشـواـ أـحـلـامـهـمـ مـنـ خـلـالـ أـطـفالـهـمـ، فـإـنـ ذـلـكـ يـعـنيـ أـنـ حـيـاتـهـمـ تـكـوـنـ فـيـ الـأـسـاسـ قـدـ اـنـتـهـتـ، وـأـنـ الطـرـيـقـ الـوـحـيـدـةـ الـتـيـ يـمـكـنـ أـنـ يـحـقـقـوـاـ فـيـهـاـ آـمـالـهـمـ هـيـ مـنـ خـلـالـ أـطـفالـهـمـ. وـلـكـنـ مـاـنـ قـالـ إـنـ الـأـمـرـ يـحـبـ أـنـ يـكـونـ كـذـلـكـ؟ لاـ شـكـ فـيـ أـنـهـ مـنـ الـخـطـأـ أنـ يـلـجـأـ الـأـهـلـ إـلـىـ عـيـشـ أـحـلـامـهـمـ مـنـ خـلـالـ غـيرـهـمـ، خـصـوصـاـ مـنـ خـلـالـ أـطـفالـهـمـ، وـذـلـكـ لـاـ يـعـنيـ أـنـهـ لـيـسـ بـإـمـكـانـهـمـ أـنـ يـعـيـشـواـ أـحـلـامـهـمـ بـالـمـطـلـقـ، فـقـدـ لـاـ تـكـوـنـ الـأـحـلـامـ الـتـيـ نـعـيـشـهـاـ فـيـ عمرـ الـ35ـ أوـ الـ45ـ أـوـ الـ55ـ غـيرـ مـمـكـنةـ الـتـحـقـيقـ. هـنـاكـ اـعـقـادـ سـائـدـ لـدـيـعـدـ مـنـ الـأـهـلـ أـنـهـ بـمـجـرـدـ وـجـودـ أـطـفالـ لـهـمـ سـيـكـونـ مـنـ الـأـنـانـيـةـ اـسـتـثـمـارـ أـوـ قـاتـلـهـمـ وـطـاقـاتـهـمـ فـيـ أـيـ أـمـرـ آـخـرـ. وـلـكـنـ الـأـمـرـ يـنـبـعـ مـنـ اـعـتـقادـ خـاطـئـ لـمـاـ يـتـوـقـعـهـ الـأـطـفالـ مـنـ آـبـائـهـمـ. وـقـدـ أـطـهـرـ الدـرـاسـاتـ أـنـ الـأـطـفالـ يـرـغـبـونـ فـيـ رـؤـيـةـ آـبـائـهـمـ يـقـومـونـ بـأـمـورـ شـائـعةـ وـمـثـيـرـةـ لـلـاهـتـمـامـ، لـأـنـ ذـلـكـ يـلـهـمـهـمـ وـيـعـطـيـهـمـ شـيـئـاـ يـفـخـرـونـ بـهـ أـمـامـ أـصـدـقـائـهـمـ. عـلـىـ الـأـهـلـ أـنـ يـتـذـكـرـوـاـ أـنـهـمـ أـمـمـ هـمـ نـمـوذـجـ لـأـطـفالـهـمـ. وـتـؤـكـدـ هـذـاـ الـأـمـرـ الـكـاتـبـةـ رـيـنـيـهـ بـيـفـرـسـوـنـ فـيـ كـتـابـهـمـ "دـلـيلـ الـأـمـ" إـلـىـ تـجـدـيـدـ ذـاتـهـاـ". وـتـقـولـ: إـنـ "أـفـضلـ هـدـيـةـ تـقـدـمـهـاـ الـأـمـ لـأـطـفالـهـاـ هـيـ مـحـبـةـ وـرـعـاـيـةـ ذـاتـهـاـ".

وختاماً لا شك في أنّه من الطبيعة الإنسانية أن يتمنى الأهل الأفضل لأطفالهم وأن يرغبوa في أن يحققوا ما لم ينجحوا هم في تحقيقه. ولكن ما يجب أن نتذكره دوماً هو أنّ أطفالنا ليسوا جزءاً منا أو امتداداً لنا، بل هم أشخاص مستقلون لهم آمالهم وأحلامهم الخاصة، وهذا ما أدركه جبران خليل جبران في كتابه "النبي" حين قال: "أبناؤكم ليسوا لكم، أبناؤكم أبناء الحياة".

مهى قمر الدين (كاتبة من لبنان)

المصدر: مجلة العربي/ العدد 685 لسنة 2015م